٥- الشاعر الذى قتل وعرفت جثته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل : الشيخ أحمد الاسكندرى

أستاذ الأدب العربى بدار العلوم

ختام البحث

ومن محاسن لسان الدين بن الخطيب فى حسن التوجيه وهو أكثر بضاعته وأهم مميزات شعره وقد لمح فيه باصطلاحات أكثر العلوم والتاريخ والبلدان والأماكن والسياسة والقضاء قوله من نبوية :

أأجحد حق الحب والدمع شاهد ... وقد وقع التسجيل من بعد ما أدى
تناثر فى اثر الحمول فريده ... فلله عينا من رأى الجوهر الفردا
جرى يققا فى ملعب الخد أشهبا ... وأجهده ركض الأسى فجرى وردا

وقوله وقد وجه باصطلاحات صناعة الكيمياء الذهبية والنحو والطب :

لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت ... بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى ... أقدام عزك ماخنسن خنوسا

ومنها :

وأعنت أندلسا بكل سبيكة ... موسومة لا تعرف التدنيسا
وملأت أيديها وقد كادت على ... حكم القضاء تشافه التفليسا

وقد أحكم التورية فى حكم القضاء :

صدقت للآمال صنعة جابر ... وكفيتها التشميع والتشميسا
والحل والتقطير والتصعيد والتـ ... ـخمير والتصويل والتكليسا
فسبكت من آمالها مالا ومن ... أوراقها ورقا فكن طروسا
بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا ... وزنا ولا لونا ولا ملموسا
وتدير من قلب السطور سبائكا ... منها ومن طبع الحروف فلوسا

ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالمسموع ما ألفيت منه مقيسا
وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تغنى العديم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعد ما دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا
لم ترج إلا الله جل جلاله فى شدة تكفى وجرح يوسى

وقوله وفيه توجيه بأسماء الكتب :

ولما رأت عزمى حثيثا على السرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أتت بصحاح الجوهرى دموعها فقابلت من دمعى بمختصر العين

ومن النوع الثانى وهو استخراجه للكثير من المعانى المخترعة أو الدقيقة التصور قوله :

أصبح الخد منك جنة عدن مجتلى أعين وسم أنوف
ظللته من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف

وقوله فى آخر قصيدة يصف نفسه فيها بالاجادة ويعتذر عن تأخر زمانه :

ما ضرنى أن لم أجىء متقدما السبق يعرف آخر المضمار
ولئن غدا ربع البلاغة بلقعاً فلرب كنز فى أساس جدار

وقوله فى ساق :

كيف آمنتما على الشرب ظبياً لحظه فى القلوب غير أمين
راح يسقى فصب فى الكأس نزراً ثقة منه بالذى فى العيون

وقوله فيه وفيه حسن تعليل وجناس وتورية :

عابوا وقالوا بساقه شعر لقد عداه الكمال عن ساق
قلت انظروا ورد روض جنته وكل ورد مشوك الساق

وقوله وفيه حسن تعليل :

فوالله ما اعتل الأصيل وإنما تعلم من شجوى فبان اعتلاله

وقوله فى وصف ليلة وقد تقدم :

رعشت كواكب جوها فكأنها ورق تقلبها بنان شحيح

وقوله وقد تقدم :

وخضيبة المنقار تحسب أنها نهلت بمورد دمعى المسفوح

ومن النوع الثالث وهو ما يؤخذ عليه من القصور عن الاجادة فى استعمال بعض الألفاظ وتصور بعض المعانى .

فمن ذلك قصيدة يمدح بها السلطان أبا حمو من بنى زيان ملوك تلمسان :

قسما بمن رفع السماء بغير ما عمد ورفع فوقها إدريسا
ودحا البسيطة فوق لج مزبد ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهلها الوعد الذى حشر الرئيس إليه والمرءوسا
ما أنت إلا ذخر دهرك دمت فى الـ ـصون الحريز ممتعا محروسا
لو ساومته الأرض فيك بماحوت لرآك مستاما بها مبخوسا
حلف البرور بها ألية صادق ويمين من عقد اليمين غموسا
من قاس ذاتك بالذوات فانه جهل الوزان وأخطأ التقييسا
من أنكر الفضل الذى أوتيته جحد العيان وأنكر المحسوسا
من دان بالاخلاص فيك فعقده لايقبل التمويه والتدليسا
أما سياستك التى احكمتها ورميت بالتقصير رسطاليسا
فلوان كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمع أن يعد بسوسا
لوسار عدلك فى السنين لما اشتكت بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى أقدام عزمك ما خنسن خنوسا

ومبالغاته على هذا النحو كثيرة وهى شنشنة نعرفها من جميع شعراء المتأخرين، وفيما ذكرنا غنية عن بقيتها.

ومنها احتجاجه بالقواعد العلمية واستعمال أساليب العلماء مما يخرج الكلام عن دائرة الاسلوب الشعرى ويبعده عن صحة الأدب كقوله:

ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط

وقوله فى ختام هذه القصيدة:

حياتك للاسلام شرط حياته ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط

وقوله.

وأضف إلى لام الوغى لام القنا تظهر عليك علامة التغليب

وقوله منها فى ممدوحه:

ويرى الحقائق من وراء حجابها لافرق بين شهادة ومغيب

ومنها فى وصف الفوارس:

شهب ثواقب فى سماء عجاجة مأثورها قد صح بالتجريب

وقوله:

وياقلب لاتلق السلاح فربما تعذر فى الدهر اطراد المقاييس
ولا تخش لج الدمع ياخطر الكرى إلى الجفن، بل قيسى على صرح بلقيس

وقوله فيها :

لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح وهل جائز فى العقل إنكار محسوس

وقوله فى ممدوحه :

أما سعودك فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجل

ومنها إغارته على كثير من معانى المتقدمين وليس ذلك بكبير عار عليه فذلك ديدن كل الشعراء قديمهم وحديثهم وإنما يستهجن من الشاعر قلة تصرفه فى المعنى الذى اختلسه من غيره بتزيين اللفظ أو بزيادة لطيفة فيه، فمن ذلك قوله :

ياناصر الدين لما قل ناصره ومطلع الجود فى الدنيا وقد أفلا
لولا التشهد والترداد منك له لم يسمع الناس يوما من لسانك لا

وهو معنى مأخوذ من قول الفرزدق أو غيره (لولا التشهد كانت لاؤه نعم) .

وقوله فى وصف صنيع سلطانى :

ماذا أحدث فى صنيع خلافة هشت إليه الشهب فى آفاقها
فكأنما الجوزاء حين تعرضت شدت لتخدم فيه عقد نطاقها

أخذه من قول الأول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

وقوله :

فلولا أننى ما اهتدى نحو مضجعى خيالكم بالليل حين يزور

أخذه من قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وإن كان نسج ابن الخطيب ألطف وأرق

وقوله :

إن اللحاظ هى السيوف حقيقة ومن استراب لحجتى تكفيه
لم يدع غمد السيف جفنا باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

فهذا مع تقصيره فى تجلية معناه ، وتأديته بعبارات نابية عن أسلوب الشعر والأدب وأشبه بعبارات الفقهاء والمتكلمين أخذه من قول القائل :

بين اللحاظ وعينيه مناسبة من أجلها قيل للاغماد أجفان

وأخذ غير ابن الخطيب هذا المعنى من قائله وأجاد فيه بقوله:

إن العيون النجل أمضى موقعاً من كل هندى وكل يمانى
فضل العيون على السيوف بأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان

وقوله وإن كان تصرف فى المعنى بعض التصرف:

قد كان يسترنى ظلام شبيبتى والان يفضحنى صباح مشيبى

أخذه من قول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وقوله :

واصبر على مضض الليالى إنها لحوامل سيلدن كل عجيب

أخذه من قول الاول :

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

وقوله فى ابى عنان سلطان المغرب وآبائه :

فأبو عنان عن على نصه للنقل عن عثمان عن يعقوب
جاءوا كما اتسق الحساب أصالة وغدوا (فذلك) ذلك المكتوب

أخذ من قول ابى الطيب فى عضد الدولة :

من مبلغ الأعراب إنى بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وملت نحر عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى (فذلك) إذ أتيت مؤخرا

فلفظ (فذلك) كان يكتبه الحساب فى حاصل الجمع بعد تفصيل مفرداته فيكتبون فى آخر الحساب فذلك كذا وكذا .

وقوله من سينية عارض بها سينية أبى تمام التى أولها :

أقشيب ربعهم أراك دريسا ضيوفك لوعة ورسيسا

وأغار على بعض معانيها وقوافيها:

لم ترج إلا الله جل جلاله فى شدة تكفى وجرح يوسى

أخذه من قول ابى تمام :

فصنيعة تسدى وخطب يعتلى وعظيمة تكفى وجرح يوسى

والخطب فى سرقاته طويل عريض نكتفى منه بما ذكرنا .

موشحاته

اخترعت الموشحات بالأندلس فى عصر بنى أمية، وبقيت محبوبة مرغوبا فيها فى التغنى واكثر اغراض الشعر فى عصر دول الطوائف ونصف عصر ولاة البربر من المرابطين والموحدين . ثم كادت تنسى ويرغب عنها إلى أن جددها ابن الخطيب فى دولة بنى الأحمر وذاع عنه كثير منها فى عدوة المغرب فعارضوه وحاكوه. وله فيها ديوان كبير لم يعثرنا الزمان عليه . وقد ذكر له المقرى فى

نفح الطيب طائفة منها أشهرها الموشحة التى عارض بها ابن سهل الاسرائيلى . وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الموشحة وذكر أكثرها فى مقدمته . ونوع هذه الموشحة بوزنها وقوافيها هو ما يختص فى زماننا باسم الموشح الأندلسى وإليك نبذا من موشحاته :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

ومنها :

فى ليالى كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

ومنها :

يا أهيل الحى من وادى الغضى وبقلبى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أمس قد مضى تنقذوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون خراب الحبس؟

وقوله :

ما لقلبى كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا قوله : «إن عذابى لشديد»
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى إلا ذما كبقاء الصبح بعد الغلس

احمد الاسكندرى